

هزيمة النصر

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي

يحكى ان انقلاباً حدث منذ قرون في الهند إذ ثار الجيش في إحدى المقاطعات على حاكمها المستهتر العاتي ، فتحلص منه وطرده شر طرد . ولكن زعماء الانقلاب لم يحذروا أحابيل الوصوليين والانتهازيين الذين سرعان ما اتخذوا منهم أعواناً لهم ، مع ان هؤلاء الوصوليين والانتهازيين كانوا سند الأحزاب التي اعتمد عليها الحاكم المطرود والتي عاثت في البلاد فساداً . فعمل أولئك المداورون بأحابيلهم على إقصاء المفكرين الأحرار المقيمين منهم والمنفيين عن زعماء الانقلاب بالتغاضي عنهم وإغفال مشورتهم ، وتناسوا تضحياتهم وحسن قدوتهم والبذور الصالحة التي بذروها وسط السخط عليهم ، فهددوا للانقلاب وهبأوا الأذهان له . وعلى الرغم من هذا الجحود والنكران استمر أولئك الأحرار في البر بوطنهم في القرب والبعد . ولكن الوصوليين والانتهازيين تغلغلوا في آلة الحكم وافسدوا المعايير وعرقلوا التقدم ، فلما تنبه الزعماء الى خطئهم كان الموت وخيبة الأمل والحسرة قد ادركت أكثر أولئك التقدميين ، وكانت النتيجة ان وجد الزعماء انفسهم امام زرافات من الانتهازيين الحربائين بدل عاتية مستهتر واحد ، وانهم ما زالوا بعيدين عن الأمن والطمأنينة . وراح عاقل من بينهم يقيس مقدار الحسارة الجسيمة التي اصاب الشعب بمجرمانه مفكريه الأحرار ، وحاول ان يسترد المنفيين منهم ، فوجد العربة قد تمكنت منهم تمكن الشيخوخة ، وحاول ان ينقذ الأحلام الباقين في بلادهم فوجد الجحود كذلك قد أكل من مواهبهم كما يأكل الصدا الحديد . عندئذ صاح ، هذا الرجل العاقل في جماعته : « لقد انتصرنا ايها السادة على الطاعية ، ولكننا لم نتصر على غباثنا ، وقد غنمنا فوق ما كنا نأمل ولكن فاتنا اضعاف ما غنمنا ، وقد تغلبنا على خطر كبير ، ولكننا لم تغلب ، ولا أدري متى سنتغلب على المخاوف التي تساورنا من كل جانب ، وقد حرصنا على غنائم المعركة ، ولكننا لم نحرص على العقول والنفوس التي مهدت لها . إن في الخارج عدواً خبيثاً ما يزال يحلم بالعودة لاستئصال شأفتنا جزاءً لنا على الأكتفاء بطرده ، وإن في الداخل اذناً له متسترين لا عداد لهم . لقد ضيعنا ايها السادة اعظم ذخيرة لنا وهي العقول والنفوس الحرة التي لا تعوض واستبدلنا بها القوة العادية فحسب ، إننا نواجه الآن ايها السادة هزيمة النصر » .

★ ★ ★

همه غاية التهلك والغدر يباهي بكل ما كان نكراً ويرى في التآمر المتناهي نشوة نافست وكوعاً بعاره غير ان القادة الكبار وإن قاموا بجلع العتي قد أيّدوه أيّدوه بعشق كل وصوليّ خوون كأنهم أهلوه أيّدوه بتركهم كل حرّ وأبي كأننا عاقبوه أيّدوه لما تناسوا رجالاً عرفوا الشعب حقه وافقدوه

زعموا ان ثورة في (الهند) عصفت ريجها بتاج ومجد فتوالى كالريح في هرب منها طريداً جبارها المستبسد وكذاك الأحداث تنتقم للشعب متى عاف ذلة المستجدي ومتى أرخص الحياة ولم يرخص شعوراً به الحياة نعدّ راح ذاك الطريد يهرع للنفي ولكن سرعان ما كان شراً همه قتل خالعيه وإن أبقوا عليه ، وإن نجا بنضاره

إن بعض الفداء تجرّيعُ حرمانٍ وظلمٍ وغربةٍ واقترارٍ
 أن هذا أقسى من الصلب والموت ، فبالموت يقهرُ الحرُّ أسره
 إن بعض الفداء أن تبذرَ البذرَ من النفس قاهرَ الأقدارِ
 إن بعض الفداء سخرُك باليأس وإن لم تنلْ من الحظ قطره
 هكذا أرق الحيارُ من الأحرار لم يغموا سوى الظلم شكرا
 هكذا أحملوا العناء من النفي ومن غربة على الحالين
 هكذا ما ونوا وإن ذوقوا الضيم وإغفالهم جزاءً وأجرا
 هكذا أفسدت معايير حكمٍ فعدا دون مهجةٍ أو يدين
 ولو أن الأحرار ما تجلوا يوماً — على رؤسهم — بما فيه خيرُهُ
 إن حب الأوطان ليس كفاء النفع منها ، بل إنه كالغريزة
 كم كريم بروحه خانه الوطن العاق و وعدّ الاحسان ما فيه خيرُهُ
 وكذلك الأحرار في القرب والبعد استظلوا بحب أرض عزيزه
 وأبوا خطرة الجحود وأن ظلوا بعيدين عن مجال الحكومه
 ولو أن البلاد صارت مجالاً لأحبابيل كل غرو وصولي
 ولو أن التقدم الحق عانى من أذاهم ضروب كيدٍ عميمه
 ولو أن الأبرار صاروا سواءً والمسيئين في زمان جهول

وأخيراً تنبه الزعماء للذي فاتهم وما ضيعوه
 ورأوا في محل عاتية فرد عديداً من العتاة الصغار
 لم يكن إثمهم صغيراً ، فكم باعوا حقوقاً ، وبئس ما حازوه
 مثلما بددوا المواهب بالحسرة واليأس والأذى والصغار

ومضى بينهم حكيم يقيس الغرم من ذلك التهاون حيناً
 بعد ما مات أو تهدم من عاش غيباً من نخبة المصلحين
 وسعى كي يعيد من ضاع في النفي وقد شاخ في التأسي حزيناً
 وسعى كي ينحس بالوطن العاني من المجد صفوة الوافين
 وسعى ينقذ البقية منهم فرآهم في أهلهم غرباء
 أكلت منهمو السنون كما يأكل عاتي الصدا القوي الحديد
 عندها صاح في أولي الحل والعقد — أفيقوا إذن! كفاكم غباء!
 إن نصراً لا ينصف الفكر والاعلام وهم ، وإن يعد الفريد
 أن يكن نصرنا على الخطر استعلى فانا رهن الخاوف بتنا
 قد حرصنا على الغنائم ، لكننا على الفكر والحجى ما حرصنا
 وجحدنا تلك العقول التي كانت لنا الماهدات فيما بلغنا
 ونسينا تلك النفوس التي بثت معاني الالباء فيما ابينا
 إننا لا نزال في خطر جم من الخصم وهو في منفاه
 فهو ما زال يسعى لكي ينسف بالدس كل ما نبنيه
 قد رأفنا به ، وهذا جزاء لاكتفاء بطرده عن حماه
 حينما حولنا له أذناناً لن يعدوا ، عاشوا على التمويه

أيها السادة العظام ! اضعنا خير ذخركنا وإن قيل فزنا
 قد غنمنا حكماً ، ولكن خسرنا أي كنز نبذنا كل حرٍّ
 إننا الآن لا نواجه إلا عالماً في مداه قد ضاق غنا
 قد خذلنا الأحرار فينا فنلنا رغم نصر هزيمة للنصر ! .

احمد زكي ابو شادي

استاذ الادب العربي بمعهد آسيا في نيويورك